تاريخ استقبال المقال:2015/11/18 تاريخ قبول نشر المقال:2016/02/08 تاريخ نشر المقال: 2016/03/01

السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم

دراسة موضوعية

د. كمال قدة

جامعة الشهيد حمة الأخضر

الملخص:

السنن الكونية والاجتماعية ظاهرة قديمة متجذرة، جديدة حاضرًا ومتجددة مستقبلاً، اهتدى إليها الكفار والملاحدة، وعُمّي عنها أكثر المسلمين، وهم أحق بها وأولى، ذلك أن لها تأصيلا في نصوص كتابهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فضلا عن سلال الأحداث والنوازل المتتالية والتي تحيط بهم في هذا العالم المنظور.

السنن الكونية والاجتماعية ممثلة فيما بسطه الله تعالى من أسباب ومسببات ومقدمات ونتائج لقضايا متناسقة في شكل نظام محكم وموحد، هي عقد منظوم من الثوابت الكونية والاجتماعية يجري سلطانها على البشر جميعًا دون تمييز بينهم مهما كان وزنهم وعرقهم، ومهما كانت ديانتهم، كأسباب النصر والهزيمة، والهداية والغواية، والحب والكراهية..وما إلي ذلك، هي سنن الله تعالى التي لا تحابي أحدًا ولا تنتظر الدفع ولا التوقيف من أحد، سنن ظاهرة واضحة لا يغفل عنها إلا غبي، من غالبها أو صادمها غلبته، ومن حوّل تيارها واستعان ببعضها على بعض أدرك الفوز والنجاة، ونال من الدنيا والدين حظا وافرًا.

كل هذا بسطته في مقال عنونته بـ **[السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم دراسة موضوعية]**

Cosmic and social rules through Holy Quran

Abstract :

Cosmic rules and social ones appeared in what does Allah created from reasons and causes also the introductions and its results of certain issues in a unified system and unique; an arbitrator and a system, it is a versified package contains cosmic and social standards, its authority on all the human beings, without distinction whatever their weight and race, whatever their religion, as reasons victory and defeat, and guidance and seduction, love and Hatred and so on finally, it is theAlmighty Allah divine laws, which does not favor anyone, and does not wait for rushing or arrestingfrom any one, rules are clear and obvious should not be neglected.

مقدمة

الحمد لله المتفضل بمنه وجوده، والشكر له تعالت أسماؤه على ما يسّر من نعمة القيام بكتابة هذا البحث، وقد تأذّن جلّ وعلا الزيادة لمن شكر والإعانة لمن صبر والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهداه إلى يوم نلقاه، وبعد..

هذا الكون الواسع الفسيح والمترامي الأطراف والأبعاد لم يخلقه الله عبثًا من غير نواميس تضبطه، فقد أقام نظام الكون، ونظام المجتمع، على سنن وقوانين ونواميس مطردة، لها صفة العموم والشمول، والثبات والدوام، والاطراد والاستمرار، فهي لا تتغير ولا تتبدل، ولا تختلف ولا تتخلف، ولا تحابي أحدًا، بل كل الخلق والمخلوقات على مسافة واحدة منها، فظاهرة الخسوف والكسوف مثلا أو ظاهرة انسلاخ النهار من الليل، ونزول المطر من حبلى السحابات، كل هذه الظواهر وغيرها لا تتحرك لجنس من البشر، ولا لعرق أو فرقة منه، هي كذلك أسباب النصر والهزيمة..

وقد ظهر مصطلح السنن الكونية كتعبير عن القوانين الطبيعية، ثم تبع ذلك ظهور مصطلح السنن الاجتماعية، لترادف مفهوم القوانين الاجتماعية، وإن كانت السنن الكونية قد لقيت من العلماء العناية نتيجة لتوفر التجارب والمناهج العلمية التي تساعدهم في التحقق من ذلك، فإن القوانين الاجتماعية (السنن الاجتماعية) لم تلق بعد ما لقيته في العلوم الطبيعية، وهذا يعود إلى عدم توفر المنهج المناسب لدراسة الظاهرة الاجتماعية، وعدم توفر البحوث الاجتماعية الصادقة في هذا المجال والاختلاف بين الظاهرة الإنسانية و الظاهرة الطبيعية معلوم..

وهذه السنن الكونية والاجتماعية، موضوع اهتمام هذا البحث، تفسر إلى حد كبير حركة الحضارة والاجتماع والعمران البشري، وترتكز على الفقه الاجتماعي والحضاري، هذا الفقه الذي يقوم على دراسة سنن قيام الأمم والدول والمجتمعات والحضارات وسقوطها، وتخلفها ونهوضها، وقوتها وضعفها، ورقيها وانحطاطها، ونجاحها وإخفاقها، والتي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، ولا تنفك أسبابها عن مسبباتها، وعدم إدراكها تجعل الإنسان مسخرا، بدل أن يكون مسخرا لها.

والواقع المزري الذي يعيشه المسلمون في العصر الحديث والتخلف الحضاري، والتدهور الاجتماعي مرجعه الأول هو جهلهم بالسنن في الآفاق وفي المجتمع، ولا سبيل إلى نهضتهم وافتكاك زمام الحضارة والقيادة ممن سبقهم إلا بفهم هذه السنن وفقهها، واستئناف الدورة الحضارية، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستثمارها، واستشراف مستقبلها.

دين الحق لا يتنافى ولا يتعارض أبدا مع السنن الكونية لأن مصدرهما واحد، وهو مشيئة الله وحكمه الذي لا معقب له، فمن أراد أن يحارب السنن الكونية باسم الدين كانت عاقبته الهزيمة، ومن الأمثلة على ذلك سنة التزاوج والتناسل التي سنها الله للحيوان والنبات، فمن أراد أن يعطلها زاعمًا أن تعطيلها من الدين ومما يتقرب به إلى الله يعجز ويقهر، ولا يتم له ما أراد أبدًا، ويجني على نفسه وعلى من اتبعه شقاء عظيما في جسمه وعقله، دون أن يحصل على طائل، ولا تنحصر الجناية في من انتحل ذلك ولا في أتباعه، بل تعم شعبه.

كل هذه المفاهيم وغيرها تناولها العديد من علماء الاجتماع بالبحث والدراسة، وهي مواضيع قديمة جديدة متجددة، اطلعت على أكثرها، ومما شد انتباهي ولفت نظري ما كتبه **الأستاذ الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري**(1) فقد استطاع أن يجمع ما تناثر من شتات هذا الموضوع في بطون وأمات الكتب، بل ويضيف إليه الجديد، ليخرجه قي شكل خطة محكمة غاية في الدقة والإبداع، وكانت مواضيعه دسمة مطعمة بالأدلة والشواهد والبراهين والآراء السديدة، ولقد سلكت مسلكه في بسط هذا المقال وعرضه، معتمدا ذات المصادر والمراجع(2)، وقريبا مما كتب البروفسور الغلبزوري حفظه الله حاول الأستاذ الدكتور محمد العربي الإدريسي محاكاته في بحث رائع بعنوان: منهج عرض السنن الكونية في القرآن الكريم، ويبقى الأستاذ الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري متألقا بكل المقاييس.

المبحث الأول: مفهوم السنن الكونية والاجتماعية في اللغة والاصطلاح القرآني

مفهوم السنة في اللغة

تعددت الآراء والفهوم في بيان معنى السنن، وهذه أشهر أقوال أهل اللغة الأقوال:

قال الإمام الرازي في "مختار الصحاح":" السنن هي الطريقة، يقال: استقام فلان على سنن واحد ويقال: امض على (سننك) أي: على وجهك، وتنح عن (سنن) الطريق و(السنة): السيرة"(3).

وقال ابن منظور في "لسان العرب":" وسنة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسننها الله للناس: أي بينها، وسن الله سنة: أي بين طريقًا قويمًا، والسنة السيرة، حسنة كانت أو قبيحة(4).

أكثر أقوال أهل اللغة متشابهة تكاد تدور على مدار واحد، لذلك اكتفيت بذكر هذين القولين، وهما الأشهر، وباقي الأقوال لا يعول عليها ولا تصلح للاعتبار، وقد تكرر في الحديث ذكر السنة وما تصرف منها، والأصل فيه الطريقة والسيرة، والسنة: الطريقة، والسنن أيضًا، والسنة الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق: أي على الطريق، وهو ما أشار إليه الإمام الرازي في مختاره.

وقال الإمام الرازي في تفسيره:" والسنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع"(5).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:" والسنة: هي العادة التي تتضمن أن يُفعل في الثاني مثل ما فُعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار"(6).

دراسة موضوعية لمصطلح السنة في القرآن والحديث:

لفظة "السنة" وردت في القرآن الكريم مصرحًا بها في ستة عشر موضعًا فمرة تكون مفردة، ومرة جمعًا، وأخرى مضافًا، إما إلى الله تعالى، أو إلى الرسل الكرام عليهم السلام(7).

وهذا بيان لمواضعها من آيات الذكر الحكيم مرتبة حسب تسلسل السور.

قوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ) [آل عمران: 137].

وقوله: (يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [النساء: 26] وكذا قوله عز وجل:(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ & لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) [آلحجر: 12، 13].

وقوله: (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً & سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) [الإسراء:76، 77].

وقوله: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) [الكهف:55].

وقوله :(مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورً)[الأحزاب:38].

وقوله:(لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً) [الأحزاب:60].

وقوله:(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا & اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [فاطر:42، 43].

وقوله:(فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) [غافر:85].

وقوله:(وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا & سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) [الفتح:22، 23].

تلك هي الصيغ الصريحة التي ورد بها لفظ " السنة " في القرآن الكريم، وهناك نوعان من الصيغ التي تحمل معنى السنة الكونية والاجتماعية من خلال سياق الآية أو الآيات، كالصيغ الشرطية التي تؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، والصيغ الإخبارية.

وبعد سرد هذه الآيات مرتبة حسب تسلسل سورها يمكن توضيح معاني السنة من تلك الألفاظ الصريحة وغير الصريحة وضمها إلى ثلاثة أنواع من المعني(8).

المعنى الأول: الطريقة الحميدة والمنهج القويم وهو ما أشارت إليه الآيات الواردة في سورة النساء.

المعنى الثاني: سنة الله عز وجل فيما أباح وشرع للأنبياء عليهم السلام، وهو ما كشفت عنه سورة الأحزاب.

المعنى الثالث: وهو السبيل المألوف والعادة المتبعة في التعامل مع الأمم بشتى أنواعها وأجناسها وأعراقها وأعرافها، وذلك حال الطاعة والمعصية، وقد ظهر ذلك واضحًا من خلال سورة آل عمران، وباقي نصوص القرآن الأخرى.

وهذا المعنى الثالث هو مدار البحث كله، وإليه اتجهت أفكار العلماء، وسال حبرهم، شرحًا وتفسيرًا لسنن المولى عز وجل.

و قد ورد في السنة المطهرة ما وافق القرآن الكريم، وهو كثير جدًا، ولأنَّ المدار واحد فقد اخترت هذا الحديث الجامع المانع، روى البخاري:عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ρ أَنَّهُ قَالَ: « لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ: فَمَنْ».

قال ابن حجر في شرح الحديث: (سَنَنَ) سبل ومناهج وعادات، (شِبْرًا بِشِبْرٍ) كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم، رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية لله تعالى ومخالفة لشرعه(9).

و(السَّنَنُ) في التصور الإسلامي العام: مجموعة نواميس ربانية ثابتة، يسير وفقها الوجود كله بأحيائه وأشيائه، أما السنة في مجال الحضارة والتاريخ البشري العام فهي مجموعة نواميس وأحكام ربانية ثابتة تتحكم بحركة التاريخ، وتبدل الحضارات بين الأمم وفق السنة الإلهية الكلية.

رابط العلاقة بين السنة الكونية والسنة الاجتماعية

قبل معرفة وجه العلاقة بين الاثنين يجب ابتداء التفريق بين المصطلحين، لأن هناك فرقًا دقيقًا بين مفهومي السنن الكونية والسنن الاجتماعية، فالسنن الكونية: هي التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة الملموسة والمشاهدة غالبًا (10).

أما السنن الاجتماعية: فهي تلك السنن الكامنة في القلوب والمشاعر والمتعلقة بسلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم وسيرتهم في الدنيا، وفق أحوال الاجتماع والعمران البشري، وما يترتب على ذلك من نتائج في العاجل والآجل.

وإلى هذا المعنى الدقيق يشير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وذلك عقب ذكره كثيرًا من السنن الشرعية والاجتماعية، قال رحمه الله:" ...وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بأمور الطبيعة، كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات.." (11)

وفي هذا الصدد يقول البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري:"ويتضح من هذا التقسيم أن مفهوم السنن الاجتماعية هو موضوع هذه الدراسة، وهو المختص بالأفراد، والأمم، والجماعات والحضارات، من خلال القرآن الكريم"(12).

ويضيف قائلًا:" ولكن لو أمعنا النظر، وأطلنا النفس في البحث، لوجدنا أن سنن الله في المجتمعات البشرية امتداد طبيعي لسننه في المجالات الكونية، لأنها قوانين واحدة وأسباب واحدة، ونواميس واحدة، تصدر عن إرادة واحدة، وتنبثق عن مشيئة واحدة.

ومن أجل هذا الفرق بين الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث البشرية يغفل الناس كثيرا عن سنة الله في الاجتماع البشري وفي تصرفات وسلوك الأفراد والأمم ويظنون أن أمورهم لا تخضع كما تخضع الظواهر الكونية لقانون الأسباب والمسببات

وعليه يمكن الخلوص إلى تعريف جامع مانع لسنن الله الاجتماعية، وهو: أن سنة الله الاجتماعية هي العادة المألوفة والطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للناس بناء على أعمالهم في حال طاعة الله تعالى، وحال عصيانه، وما يترتب على ذلك من نتائج، وثواب وعقاب، في المعاش قبل الميعاد"(13).

المبحث الثاني: ضرورة معرفة السنن الكونية والاجتماعية.

أ- ضرورة العلم بالسنن

كما أن الحوت في البحر لا يحيا بغير ماء فالمسلمون كذلك لا يستطيعون شق طريقهم بين صفوان وشعب الحياة ووضع بصمتهم ما لم يفقهوا هذه السنن ويحسنوا فنَّ التعامل معها، والتحكم فيها، حتى يستعيدوا فاعليتهم وقدرتهم على التغيير والإصلاح والبناء، وبذلك تختفي آثار العشوائية واللامبالاة من حركتهم، والفوضى الفكرية من عقولهم، والإرجائية والجبرية من مواقفهم، السلبية.

ولن يكون ذلك إلا بالقضاء على العقل الخرافي الذي يفسر الوقائع الاجتماعية تفسيرًا مضحكًا غبيا يقف عائقًا أمام حركة الحضارة البشرية، ولن يكون ذلك إلا برفع أسباب الخمود والهمود، والركود والجمود، التي عطلت العقول عن إدراك سنن الله ونواميسه في الكون والمجتمع، والتي أخرجت الأمة المسلمة من تدافع عالم المادة والشهادة والحركة إلى حال من السلب والتواكل، مما أشاع فيها عقيدة الجبر والإرجاء التي انحرفت بركن القضاء والقدر إلى تعطيل قانون السببية تعطيلا كاملا.

إننا بحاجة ماسة لفهم هذه السنن التي تزخر بها آيات القرآن الكريم وجوامع كلم النبي الأمين ρ في السنة النبوية المطهرة، بل إن فهمها من واجبنا الشرعي والديني، فلا بد أن يتفرغ فريق من العلماء لهذه الفريضة الشرعية والكفائية المغيبة، لأنها جزء من الدين فلا غرو أن نجد القرآن الكريم قد خصص مساحات واسعة قد تزيد عن نصف القرآن للتاريخ وسننه وقوانينه، ومنحنا أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري وفهم حركته.

قال الشيخ محمد رشيد رضا:" إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة، لنستمد ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها، أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وبينها العلماء بالتفصيل"(14).

ويقول في موضع آخر:" إن علماء الصحابة والتابعين وأئمة الأمصار – الذين ورثوا الكتاب بالسليقة – كانوا يفهمون هذه السنن الإلهية في الخلق ويهتدون بها، وإن لم يضعوا لها قواعد علمية وفنية لتفقيه من بعدهم فيها، ثم زالت السليقة فصاروا يفسرون القرآن والدين بالقواعد والفنون والمعارف الموروثة من الشعوب التي أسلمت، ولم يكن علم الاجتماع قد دونه أحد، لذا لا نرى في تفسيرهم شيئًا من هذه السنن الخاصة بسياسة الأمم، بل تنكبوا هداية القرآن فيها، فكانت عاقبة أمرهم ما شكوا منه، ونحاول تلافيه.."(15).

يقول البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري: " ويمكن الجزم أن واقع المسلمين اليوم من التخلف الحضاري والتدهور الاجتماعي، وذهاب القوة والعزة والسلطان، إنما يعزى إلى جهلهم بالسنن الإلهية في الآفاق والأنفس والمجتمعات، ولا سبيل إلى التقدم والرقي والنهضة واستئناف الدورة الحضارية إلا بفهمها وفقهها، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستثمارها واستشراف مستقبلها..."(16).

ب- أصول السنن

الأصل الأول: القرآن الكريم

وفي ثناياه خلاصة وعصارة السنن التي تنظم العلاقة بين المجتمعات والأمم، فمرة يذكرها صراحة، وأخرى إشارة ودلالة..وهكذا يرى في قصص الأولين أحسن تمثيل لنهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية التي تحكم عالم المادة، ليعتبر أولوا الأبصار.

إن العبرة من القصص القرآني لا تكاد تنقطع أو تنتهي بهلاك الأمم الذين سجل القرآن الكريم قصتهم، وستبقى هذه السنن رافدًا من روافد الفهم والفقه، وإلا فما فائدة هذا القصص الخالد إذا لم ينشئ عقلا مستنبطا للقوانين والسنن، التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات، هل هي حكايات لتجزئة الوقت أسقطها الزمن وطواها التاريخ؟ كلا؟..فمراد الله تعالى أعلى وأعز وأكرم من أن يكون ذلك القصص منحصرًا في حكايا للترف الفكري والتفكه العلمي(17).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :" ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثير.." (18).

قال البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري: قلت:" فذلك قوله تعالى آمرًا بالاعتبار:(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)" (19) [يوسف:111].

الأصل الثاني: السنة النبوية

السنة النبوية المطهرة هي مصدر التشريع الثاني لاستنباط السنن الكونية والاجتماعية، ففيها من القصص، وضرب الأمثال، وأحاديث الفتن وأشراط الساعة والإخبار بالمغيبات والمستقبليات، والتطبيقات النبوية، ما يروي ظمأ الباحث ويجيب عن كثير من الأسئلة الغامضة حول هذه السنن الكونية والاجتماعية.

وإذ نطرق هذا الباب فإننا نسجل عظيم الأسف لانحسار همّ الباحثين في موضوع السنن الكونية والاجتماعية علي القرآن الكريم فقط، غافلين عن معين السنة النبوية المطهرة وما حوته من درر لوامع وكلم جوامع، مع أن كليهما وحي إلهي: البلاغ القرآني والبيان النبوي.

الأصل الثالث: استنطاق التاريخ

قال تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) [النمل:69] السير في أرجاء الأرض والتقلب في أركانها هو الكاشف الصادق عن السنن التي تحكم الحركة الاجتماعية، وكذا استقراء التاريخ، الذي هو المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى للإفادة منها للحاضر والمستقبل.

ثم إن المتأمل في واقع التاريخ وعلاقته بالنهج القرآني يدرك بوضوح أن التاريخ لا يسير بالصدفة، ولا يتحرك عبثًا وفوضى، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والحياة والأشياء سواء بسواء، والوقائع التاريخية لا تجري اعتباطا ولا عشوائيًا، إنما تقوم على ارتباط أسبابها بمسبباتها، وعللها بمعلولاتها، ونتائجها بمقدماتها.

قال تعالى:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ _ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) [المؤمنون:69].

قال البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري::" هذا التأسيس الذي أسس به ابن خلدون لعلم الاجتماع، طار كل مطار، وقرع أبواب المدن والأمصار، فاتجه الفكر الأوروبي بعد قرابة أربعة قرون، في بداية ما يسمى بعصر النهضة، إلى دراسة التاريخ والكشف عن سننه وقوانينه، فقامت هناك أبحاث متنوعة ومختلفة حول فلسفة التاريخ،

ونشأت على هذا الأساس مدارس مثالية ومادية ومتوسطة، نشأت لكي تجسد هذا المفهوم الذي ضيعه المسلمون، ولكن هذا الجهد البشري كله هو في الحقيقة مدين لهذا التنبيه القرآني. (20)"

وقال أيضًا:" ولذلك حثّ القرآن الكريم على السير في الأرض حقيقة أو مجازًا وعلى دراسة التاريخ المنظور أو المسطور، ببصيرة نفاذة، ووعي حاضر لاستخلاص العبر، واستنباط السنن، لتجنب مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية، والأمم والحضارات السابقة إلى السقوط الحضاري، والدمار الاجتماعي ولسلوك سبيل النهوض والبناء. (21)"

بقي أن نؤصل ذلك تأصيلا شرعيًا وواقعيًا من خلال ما سنسرد الآن من آيات محاولين استخراج الظاهرة منها:

قال تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ _ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) [آل عمران:138].

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)[محمد:10].

وقال تعالى:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ _ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)[ق:37].

وقال أيضًا:(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[الحج:46].

فأنت تدرك أن العقل البشري ينتعش ويصبح قادرًا على السير وفق هذه السنن كالبوصلة حينما يلقى من يحمله وهو يضرب في الأرض شرقًا وغربًا يستمد القواعد الثابتة والسنن الجارية من حركة التاريخ نفسه.

وقال الله تعالى واصفًا يهود بني النضير:(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ)[الحشر:2].

فهذه الآية الكريمة وضحت للمسلمين أسباب سقوط حضارة اليهود التي عمرت طويلا، وما أغنى عنها جذورها الضاربة في عمق التاريخ، ليأخذ المسلمون حذرهم، فلا تتسرب إليهم إصابات الأمم السابقة وعللها وأمراضها، وقد جعل الفقهاء والأصوليون هذه الآية دليلا على حجية القياس الشرعي، أي قيسوا حالكم بحالهم، وأن ما حدث لهم سيحدث لكم، إذا سلكتم طريقتهم، وسرتهم سيرتهم، وهذا هو المعنى المراد من هذا النص، سواء قلنا مع الجمهور أن معنى (فَاعْتَبِرُوا): قيسوا، أو قلنا مع الظاهرية وابن حزم أن معناها: واتعظوا.

الأصل الرابع: فقه الواقع

عرف الإمام ابن القيم أحد نوعي فقه الواقع فقال:" أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط بها علمًا(22)".

المبحث الثالث: خصائص السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم

السنن الكونية والاجتماعية مرهونة بأربع خصائص وسمات وهنَّ: الربانية والعموم، والثبات، والاطراد.

الربانية

هذا المصطلح قليل من يفقهه لأن له تعلقًا مباشرًا بصفاء السريرة وقوة المعتقد، وهو من أهم خصائص السنن في القرآن الكريم، فهي مرتبطة بالله سبحانه وتعالى خلقًا وإيجادًا وتقديرًا، وليس ذلك لأحد من الناس، ولذلك ورد لفظ السنة في القرآن بإضافتها إلى الله تعالى في مواضع من القرآن الكريم: (سُنَّةَ اللهِ) و(كَلِمَاتُ اللهِ) على اختلاف التعبير، كما قال سبحانه: (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا & سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)[الفتح:22، 23].

والقرآن الكريم حين يضفي قداسته الربانية على السنن الكونية والاجتماعية التي تحكم عالم الشهادة، يريد أن يؤكد الصلة الوثيقة بين العلم والإيمان، لأن اكتشاف انتظام هذه السنن والقوانين وعملها ينبغي أن يقود إلى الإيمان بالله لا إلى الطغيان والاستغناء عنه سبحانه، فالإنسان حينما يقرأ صفحات الكون المنظور واللامنظور وحينما يقلب صفحات التاريخ والاجتماع يجب عليه أن يقرأها باسم من علَّم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم، قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ & خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ & اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ & الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ & عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[العلق:01-05].

العموم والشمول

وتتميز هذه السنن أيضا بالعموم والشمول، فهي تنطبق على الناس جميعًا دون تمييز ودون استثناء، وبلا محاباة، فالجزاء فيها من جنس العمل، والنتائج بمقدماتها، بغض النظر عن الدين، والجنس واللون، والأصل والإيمان، والكفر فالكل في ميزانها سواء.

فمن سار على سنن الله في الحرب مثلا، ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدًا أو وثنيًّا، ومن صادم نواميس الكون غلبته، لأن نواميس الكون غلابة لا تحابي أحدًا مهما كان وزنه، وإن كان صديقًا أو نبيًّا، وعليه يتخرج ما صورته انهزام للمسلمين في غزوة أحد حتى وصل المشركون إلى النبي ρ فشجوا رأسه الشريف وأجبروا حماته على التراجع إلى تلك الحفرة(23).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن ذلك العموم والشمول: " وسنته: عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة"(24).

ومثال العموم والشمول في السنن النفسية والطبائع الإنسانية في الأفراد قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)[النساء:28] وقوله:(خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ)[الأنبياء:37] فهذه سنن شاملة وعامة في كل البشر.

ومثال العموم في سنن التغيير قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد:11] فهي سنة عامة شاملة لكل بني الإنسان لعموم لفظ (قَوْمٍ) في الآية.

ومثال العموم في سنة التداول قوله تعالى: (وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران:140].

ومثلها سنة التدافع، قال تعالى: (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة:251].

الثبات والاستمرار

خاصية الثبات والاستمرار من أهم خصائص السنن الكونية والاجتماعية التي عينها القرآن الكريم، وهي تجري على الآخرين كما جرت على الأولين، وتعمل في عصر سفن الفضاء عملها في عصر الجمل سفينة الصحراء، وثبات السنن وعدم تغيرها وتحولها أمر لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان كما يقال، يدل عليه تاريخ الأمم والحضارات والواقع المشهود، فكل من جاء بالأسباب وأتى بالموجبات تحققت فيه سنن الله وأحاطت به.

فمثلا من جاء بأسباب الهلاك والدمار وقعت به وفق سنة الله تعالى لا محالة، وإن الهلاك لن يتبدل إلى نعيم وفقًا لثبات السنن، ومن وجب عليه العذاب في الدنيا لإتيانه بأسبابه لا يتحول عنه إلى غيره، لأن سننه تعالى تجري على أوزان العدل والحكمة، ولا يظلم ربك أحدً.

ودليل خاصية الثبات قوله تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا)[الأحزاب:38]

الاطراد

خاصية الاطراد هي رابع الخصائص، وهي تعني التكرار والتمدد والتتابع على منهاج واحد، وطريقة واحدة لا تختلف ولا تتخلف، كلما وجدت الأسباب وتوفرت الشروط، وانتفعت الموانع، ولولا الاطراد لم يصح الاعتبار، وقد قال تعالى: (هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ& وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[آل عمران:139].

قال البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري: " والاطراد دليل على أن مقتضى حكمة الله تعالى أن يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجبًا لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد، فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال:(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)[الأحزاب:62] فعمّ كل سنة له، وهو يعم كل سنته في خلقه وأمره".

وقال أيضًا:" إن القرآن الكريم بتأكيده المستمر على اطراد السنن الكونية والاجتماعية، وتكررها، وتسلسلها، وتتابعها، يكون قد جاء برؤية علمية للتاريخ والاجتماع، أي أن هذه السنن مطردة، ليست علاقة عشوائية، وليست رابطة بين العلل والمعلولات قائمة على الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي وعلمي، لأن أهم ما يميز القانون العلمي الخاضع للاستقراء والملاحظة والتجربة عن بقية المعدلات والفروض: هو الاطراد والتتبع وعدم التخلف".(25)

المبحث الرابع: أمثلة ونماذج من سنن النهوض الاجتماعي والحضاري في القرآن الكريم

السُنة الأولى: سُنّة التغيير الاجتماعي والحضاري:

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[الرعد:11] هذه الآية هي قاعدة التغيير وأساسه، وهي من الكليات القرآنية التي تنبثق عنها فروع وجزئيات كثيرة.

التغيير هو الانقلاب من حال ووضع إلى حال ووضع آخر، وهي قضية عامة، لذا فإن تركيزنا سيكون على الجانب الإيجابي منه، وهو التغيير نحو الأحسن حيث قضى الله تعالى أنه لا يغير واقع مجتمع حتى يبدأ أفراده بتغيير ما بداخل أنفسهم من عقائد ومفاهيم وأفكار وأخلاق، ويصلحوا أحوالهم وأوضاعهم، فيغير الله تعالى حينئذ ما بهم، ويأخذ بأيديهم.

قال البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري:" هكذا بين القرآن الكريم أثر الإنسان في التغيير، وأنه مركز الثقل في حركة التاريخ، وجعله مدار الحركة التاريخية، وأوكل إليه مهمة التغيير والبناء، وكلفه بتحقيق الخلافة الإلهية على الأرض، وإنشاء العمران عليها.." (26).

ومما دل من الآيات بشكل غير صريح على سنة التغيير قوله: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) [الأعراف:96].

قال البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري:" هذه الآية وغيرها مما هو من جنسها تجعل المحتوى الداخلي النفسي والروحي للإنسان هو القاعدة (البناء التحتي) في حين تجعل الوضع الاجتماعي هو البناء العلوي (الفوقي)، ولا يتغير البناء العلوي للمجتمعات إلا بتغير القاعدة، فخارج الإنسان يصنعه داخل الإنسان، نحو الأسوأ أو نحو الأحسن"(27).

السنة الثانية: سنة الأجل المسمى

وفيها يتضح معنى قوله عز وجل: (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)[الرعد:38] وكيف أن لكل بداية نهاية، ولكل شيء أجل مسمى يبلغ منتهاه، ونضجه وكماله، فلا ينبغي أن يستعجل الشيء قبل أن يبلغ أجله المقدر لمثله، ومن القواعد المقررة في الإسلام أن: (من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه).

ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين بالصبر، وعدم الاستعجال، قال الله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) [الأحقاف:35].

السنة الثالثة: سنة التداول الحضاري

وهي السنة التي تُسلم المشعل من جيل إلى جيل ومن حضارة إلى حضارة وهي سنة تحكم حركة الحياة وحركة التاريخ، وتتمثل في نظام التعاقب والتناوب الحضاري، ودليلها قوله تعالى:(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ _ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) [آل عمران:140، 141].

السنة الرابعة: سنة التدافع الحضاري

وهي سنة عامة وثابتة ومطردة، تحكم كل المجتمعات والحضارات، وفيها قوله تعالى: (وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة:251].

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية :"(ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد)" (28).

السنة الخامسة: سنة النصر والتمكين

وهذه السنة الحضارية لا تكون إلا بعد سنة أخرى وهي سنة الابتلاء والتمحيص، ولذلك لما سئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:" أيهما أفضل للرجل: أن يمُكّن أو يبتلى؟ كان من دقيق استنباطه وفهمه لكتاب الله قوله: لا يمكن حتى يبتلى.

ولعله فهم ذلك من قوله تعالى:(وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)[آل عمران: 141] (29)

الخاتمة: وفيها أهم النتائج وهي عبارة عن خلاصات لما ذكره البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري في مقاله السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم.

إن القوانين الاجتماعية (السنن الاجتماعية) لم تلق بعد ما لقيته في العلوم الطبيعية، وهذا يعود إلى عدم توفر المنهج المناسب لدراسة الظاهرة الاجتماعية، وعدم توفر البحوث الاجتماعية الصادقة في هذا المجال.

الواقع المزري الذي يعيشه المسلمون في العصر الحديث والتخلف الحضاري، والتدهور الاجتماعي مرجعه الأول هو جهلهم بالسنن في الآفاق وفي المجتمع، ولا سبيل إلى نهضتهم وافتكاك زمام الحضارة والقيادة ممن سبقهم إلا بفهم هذه السنن وفقهها واستئناف الدورة الحضارية، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستثمارها واستشراف مستقبلها.

لفظ "السنة" ورد في القرآن الكريم يدور على ثلاث معاني:

المعنى الأول: الطريقة الحميدة والمنهج القويم وهو ما أشارت إليه الآيات الواردة في سورة النساء.

المعنى الثاني: سنة الله عز وجل فيما أباح وشرع للأنبياء عليهم السلام، وهو ما كشفت عنه سورة الأحزاب.

المعنى الثالث: وهو السبيل المألوف والعادة المتبعة في التعامل مع الأمم بشتى أنواعها وأجناسها وأعراقها وأعرافها، وذلك حال الطاعة والمعصية، وقد ظهر ذلك واضحًا من خلال سورة آل عمران، وباقي نصوص القرآن الأخرى.

(السَّنَنُ) في التصور الإسلامي العام: مجموعة نواميس ربانية ثابتة، يسير وفقها الوجود كله بأحيائه وأشيائه، أما السنة في مجال الحضارة والتاريخ البشري العام فهي مجموعة نواميس وأحكام ربانية ثابتة تتحكم بحركة التاريخ، وتبدل الحضارات بين الأمم وفق السنة الإلهية الكلية.

سنة الله الاجتماعية هي العادة المألوفة والطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للناس بناء على أعمالهم في حال طاعة الله تعالى، وحال عصيانه وما يترتب على ذلك من نتائج، وثواب وعقاب، في المعاش قبل الميعاد.

المسلمون لا يستطيعون شق طريقهم بين صفوان وشعب الحياة ووضع بصمتهم ما لم يفقهوا هذه السنن ويحسنوا فنَّ التعامل معها، والتحكم فيها، حتى يستعيدوا فاعليتهم وقدرتهم على التغيير والإصلاح والبناء، وبذلك تختفي آثار العشوائية واللامبالاة من حركتهم، والفوضى الفكرية من عقولهم والإرجائية والجبرية من مواقفهم، السلبية.

فهم السنن الكونية والاجتماعية واجب شرعي وديني، ولا بد أن يتفرغ فريق من العلماء لهذه الفريضة الشرعية والكفائية المغيبة لأنها جزء من الدين فلا غرو أن نجد القرآن الكريم قد خصص مساحات واسعة قد تزيد عن نصف القرآن للتاريخ وسننه وقوانينه، ومنحنا أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري وفهم حركته.

السنة النبوية المطهرة هي مصدر التشريع الثاني لاستنباط السنن الكونية والاجتماعية، ففيها من القصص، وضرب الأمثال وأحاديث الفتن وأشراط الساعة والإخبار بالمغيبات والمستقبليات والتطبيقات النبوية، ما يروي ظمأ الباحث ويجيب عن كثير من الأسئلة الغامضة حول هذه السنن الكونية والاجتماعية.

السنن الكونية والاجتماعية مرهونة بأربع خصائص وسمات وهنَّ: الربانية والعموم، والثبات، والاطراد.

ثبت المصادر والمراجع

المرجع الأساس والذي عليه المدار في هذا المقال: السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم/ البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري حفظه الله. http://iiit.org.ma/index.phpD

أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق للدكتور محمد كنعان، كتاب " الأمة" ط1، المحرم 1411 هـ تقديم، عمر عبيد حسنة.

إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر، بيروت.

تفسير الرازي المسمى مفاتيح الغيب طبعة دار الفكر.

تفسير القرطبي المسمى: الجامع لأحكام القرآن ط 1 دار الفكر بيروت. 1407 هـ-1987 م.

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ط 2 دار الفكر.

جامع الرسائل لابن تيمية (المجموعة الأولى) ت: د محمد رشاد سالم ط 2 1405هـ - 1984 م مطبعة المدني القاهرة.

السنن الإلهية في الأمم و الجماعات و الأفراد للدكتور عبد الكريم زيدان ط 3 1423هـ - 2002 م مؤسسة الرسالة بيروت.

السنن الشرعية وأثرها في تغيير الأنفس والمجتمعات من خلال تفسير القرطبي لسيد سعيد السيد عبد الغني بحث للدكتوراه مرقون بكلية الآداب جامعة ابن طفيل بالقنيطرة.

صحيح البخاري دار الكتب العلمية بيروت 1420 هـ- 1999 م.

علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس للدكتور محمد أمحزون مجلة البيان اللندنية العدد 207 السنة 19 دي القعدة 1425 هـ ديسمبر /يناير 2005 م.

فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية لإدريس العلمي، رسالة دكتورة مرقونة بكلية الآداب جامعة محمد الأول بوجدة.

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

لسان العرب لابن منظور ط 3، دار إحياء التراث العربي بيروت: 1419 هـ/1999 م.

مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد ابن قاسم وابنه، مكتبة المعارف الرباط.

مختار الصحاح للرازي ط 5 المكتبة العصرية بيروت 1420 هـ/1999م.
مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي نشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية ، 1393 – 1973.
مقال منهج عرض السنن الاجتماعية، للشيح محمد العربي الإدريسي/ موقع (مقالات ودراسات وأبحاث إسلامية http://www.swmsa.net/art/s/1763/).

الهوامش

(1) – عالم الأصول والفقه وصاحب التأليفات والبحوث والمقالات، أستاذ التعليم العالي بكلية أصول الدين جامعة القرويين بالمملكة المغربية حرسها الله.
(2) – لأجل ذلك كنت حبيسه في أكثر نصوصه وتعليقاته ولست مبالغا إن قلت بأن هذا المقال الذي كتبته لا يزيد على أن يكون تهذيبا واختصارا لما كتبه البروفسور الغلبزوري حفظه الله في مقاله الرائع: السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم، وإن لم يكن في هذا المقال الذي كتبته من مزية سوى إني نقلت للقارئ ما كتبه البروفسور في موضوع السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم لكان كافيا.
(3) – القاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة سنن: ص 1207.
(4) – لسان العرب لابن منظور، مادة سنن 395/6.
(5) – تفسير الرازي 11/9.
(6) – جامع الرسائل لابن تيمية، ص: 52 المجموعة الأولى.
(7) – فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية للدكتور إدريس العلمي ص:18 .
(8) – هذه المعني الثلاثة هي من إبداعات البروفسور الغلبزوري في بحثه السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم http://iiit.org.ma/index.phpD نقلا عن استشارية المعهد العالمي للفكر الاسلامي بالمملكة المغربية حرسها الله.
(9) – ابن حجر فتح الباري، 1274/3.
(10) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم/ البروفسور توفيق بن أحمد الغلبزوري http://iiit.org.ma/index.phpD
(11) – جامع الرسائل لابن تيمية ص: 52 المجموعة الأولى.
(12) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.
(13) – المرجع السابق.
(14) – تفسير المنار 140/4.
(15) – المرجع نفسه.
(16) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.
(17) – أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، كتاب الأمة، مقدمة عمر عبيد حسنة، ص13.
(18) – رسالة في لفظ السنة في القرآن لابن تيمية ضمن جامع الرسائل (المجموعة 1) ص : 55.
(19) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.
(20) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.
(21) – المرجع نفسه.
(22) – إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم 87/1.
(23) – تفسير المنار : ص4/ 141.
(24) – مجموع الفتاوى 23/13.
(25) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.
26) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.
(27) – المرجع السابق.
(28) – تفسير القرطبي 260/3.
(29) – السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم للغلبزوري، يرجى النظر في الموقع.